مقدمة عامة

عندما تتقدم العلوم والمعرفة والفنون في مملكة ما، فهذا يعني أن الملك "راعي الشعب" عرف كيف يحقق التناغم والتوافق بين سلطته وقدرة رعاياه على الخلق والإبداع والارتقاء في مختلف المجالات، وكان عليه قبل كل ذلك تحقيق الوفرة والكفاية ونشر العدالة بحيث يؤدِّي كل ذلك إلى نمو من شأنه التوجه نحو "الأمثل والأجمل"، وهذا ما عرفته بلاد الرافدين وساحلها المتوسطي في غزارة ما تميزت به من ثراء روحي لم يقف عند ثرائها المادي، بل تعداه، وهذا ما ستعرضه هذه المجموعة.

وإذا ما كنا بالنسبة لتلك الأزمنة الموغلة في القدم لا نعرف أسماء الذين ساهموا وحققوا كل ذلك، فإن اسم الملك وحده هو الذي يعنون ويرمز إلى ما تم تحقيقه من قبل جميع هؤلاء الذين لا تصلنا أسماؤهم إلا نادراً، لذا يمكن اعتبار ذلك من مآثر ملك عرف كيف يحكم وكيف يشجّع.

يحلو لنا أن نتصور مثلاً أن حمورابي كلف مجموعة القضاة في مملكته بجمع كل ما نشر من قوانين وتشريعات سبقته، وصياغة مجموعة قوانين متكاملة تعطى لها الصفة الشعبية ليعرفها الجميع وليتعرفوا على حقوقهم وواجباتهم وقد نتج عن ذلك صياغة التشريع الذي نقش حمورابي اسمه على نصبه في مراكز عدة من مملكته.

وفي مملكة أوغاريت كذلك، يحلو لنا أن نتصور أن أحد مثقفي المملكة الذي أمعن التفكير في كيفية تسهيل فن الكتابة ونقل الفكر في جميع المجالات الملموسة منها والمجرّدة، توصل إلى اختراع الأبجدية الأوغاريتية وعلى هذا الأساس منحه ملك أوغاريت (نقمد الثاني) مكافأة له مدى الحياة، أرضاً وبيتاً ومعاشاً وأمره بكتابة ملاحم وأساطير المملكة وطقوس معابدها باستعمال الأبجدية الجديدة التي هي فخر مملكة أوغاريت، كما أمره بالإشراف على تأسيس المدارس التي سوف تنشر الأبجدية وهنا أيضاً نجهل اسم المخترع، وكان لا بد من مكافأته من قبل ملك عاصره قد يكون (نقمد الثاني).

أما العلماء الفلكيون الذين أصلحوا التقويم البابلي ليتلاءم مع مظاهر السماء، هم أيضاً لم تصلنا أسماؤهم وبالطبع فهم الذين أتقنوا علوم السماء وراقبوا

وسجّلوا واكتشفوا فروقاً سوغت التعديل وإضافة شهر تكراري إلى السنة، فأصدر ملك البلاد مرسوماً اقترن باسمه، والملك هو أيضاً حمورابي.

عديدة هي مآثر الملوك التي سوف تتضمّنها هذه المجموعة المؤلفة من أربعة كتب، كما لا يخفى على القارئ، إن ملوكاً ممن شملتهم المآثر التي سوف نعرضها، منهم من حارب جواره ومنهم من أسس إمبراطورية أو أخضع ممالك مجاورة بعد أن عقد معها معاهدة صداقة، هؤلاء سوف لا نتابع نصوص فخرهم بانتصاراتهم الحربية وتعداد غنائمهم والضحايا الذين قتلوا أو أسروا في معاركهم "المظفرة"... إلا أننا وبصرف النظر عن تلك الحروب والمعارك، سوف نتابع مسيرة هؤلاء الملوك وليس جميعهم فيما حققوا من إصلاح اجتماعي وما نفذوا من مشاريع عمرانية وأعمال من شأنها تأمين رخاء شعوبهم وازدهار ممالكهم وتزويدها بالمعرفة الخلّاقة بتشجيع مفكريهم وعلمائهم وشعرائهم ومنشديهم، بحيث بعيداً عن الحروب، في كل ما يتوفر لدينا مما تركوه لنا من نصوص تشير إلى ما حققوه في كل ما من شأنه إغناء حضارة البلاد ودورها في الإشعاع الذي اشتهرت به بلاد ما بين النهرين والساحل الغربي المتوسطي محققة إلى جوار وادي النيل حضارة ساهمت إلى حد كبير في تقدم الإنسان في مختلف المجالات التي من شأنها تحقيق إنسانيته، بفضل ما أنتجت وبنت وأصلحت في المجتمعات التي رمز إليها الملوك والحكام وما أنتجه جميع من آمن بالمعرفة وأضاء دروب الحضارة ورسَّخها وجعل أولويتها خدمة الإنسان.

نظراً لاتساع الموضوع سوف يتوزع هذا العرض على أربعة كتب:

يعرض **الكتاب الأول** في فصل خاص أسباب استبعاده لكل ما يتعلق ببشاعة الحرب والدمار، ليتطرق إلى أسس الحكم والعدالة في بلاد الرافدين وأصول ممارستهما كما يشير إلى الملوك والأبطال والحكماء الذين بلغوا شهرةً جعلتهم يدخلون عالم الأسطورة التي تميز بها ما عرف "بالعصر البطولي".

ثمّ لترسيخ أسس العدالة الاجتماعية، كان لا بدّ من تجسيد قواعدها في نصوص تشريعية عمد إليها عدد من الملوك الذين سبقوا حمورابي. وأكمل ما وصلنا من التشريعات هو تشريع حمورابي الذي نقدّم للقارئ مضمون مقدّمته مشيرين إلى

ما سوّغ تدبيجها، وأبعد من ذلك فإنّ الكتاب الأوّل يقدّم مقارنة بين بعض مواد تشريع حمورابي والقوانين الفرنسية الحديثة التي تتعرّض لمواضيع مماثلة ؛ كما يعرض لمحة عن المحاكم والتحكيم في العالم القديم وكذلك نصوص بعض الأحكام ذات الأهميّة، منتقلاً بعد ذلك إلى ما عرفته مملكة (أوغاريت) من وثائق حقوقيّة وقضايا تحكيمية. هناك أيضاً عودة إلى الملوك الذين أرادوا شخصياً المساهمة في أعمال بناء بيوت الآلهة تكريماً لهم ولكسب ثوابهم ؛ فإنّ الكتاب الأوّل يستعرض عدداً من معابد الآلهة في بلاد الرافدين وعلى الساحل المتوسّطي في كلّ من أوغاريت و أمورو و كنعان، كما لا يغفل الإشارة إلى الأسماء التي عُرِفت بها معابد بلاد الرافدين. وبما أن الممالك القديمة، التي نحن بصددها، مارست تجارة نامية ساهمت في تحقيق ثرائها فإن الكتاب الأول يعرض معالمها، اعتباراً من الممارسة التجارية الآشورية، التي هي أقدمها في توجهها نحو الشمال وإقامتها المراكز الأناضولية التي قدّمت لنا آلاف اللوحات التجارية في مركز (كانيش)، متابعاً تجارة الساحل الكنعاني الفينيقي التي لا يجهل أحد أهميتها ويختتم في عرض أحدثها وهي تجارة الملوك النبطيين وعبقريتهم.

يتابع **الكتاب الثاني** تعريف القارئ على أعمال الريّ التي مارستها بسخاء بلاد الرافدين والمشاريع المائيّة التي حقّقها الملوك، دون إغفال النقل النهري وقنالاته ووسائط النقل المستعملة. أمّا ما يلفت النظر من الناحية الجمالية فهو أنّ الملوك لم ينسوا أن يعبّروا عن شغفهم بالحدائق في قصورهم وتنويع أشجارها باستقدامها من مناطق تَوسّع حكمهم مهما بَعِدت، كما لا يغفل الكتاب الثاني عن تقديم مملكة (إيبلا) السوريّة التي تفوّقت بالتنظيم والإدارة بشكل مذهل، منتقلاً بعد ذلك من مملكة ماري إلى الساحل الكنعاني لعرض ما عرفته ممالكه في علاقتها مع مصر الفرعونية خلال فترة العمارنة بشكل خاص، بالإضافة إلى علاقات الساحل مع المملكة الحثّية التي بدأ تأثيرها يتعاظم معارضاً المصالح الفرعونيّة. أمّا بصدد تلك العلاقات مع المملكة الحثّية، فقد قدّمت لنا (أوغاريت) ومنطقة (أمورو) معلومات ثمينة عن تلك الحقبة الزمنية عرفت ملوكاً وملكات حكموا وحكمنَ، منهنّ من لعب دوراً في سياسة الحكم ومصير الممالك.

أما **الكتاب الثالث** فهو يتطرّق إلى المعرفة وأسس الحضارة، مروراً بالكتابة ونشرها وتطورها من الكتابة التصويرية إلى المقطعيّة ثم الأبجدية في كل من (أوغاريت) و (جبيل) على الساحل الكنعاني وكذلك إعداد لوائح لغوية وقواميس موسوعية تساعد الكتبة في إعدادهم وتمكينهم من ممارسة دورهم في المملكة.

أما العلوم، فإن الكتاب الثالث يتعرّض للجوء بلاد الرافدين إلى النظام الستيني للعدد، نظام من شأنه تسهيل كتابة الأرقام الكبيرة، كما إنه يعرض ما وصلت إليه علوم الرياضيات والمساحة والجبر في بلاد الرافدين ومن بينها ما عُرف فيما بعد يونانياً وغربياً بنظريّة (فيثاغورس) في المثلث القائم الزاوية التي عرفها البابليون والمصريون منذ بداية الألف الثاني ق.م. في لوحة (تل حرمل) العراقية.

ولمّا كانت السماء تقدّم لراصدي حركات كواكبها وسيّاراتها إشارات من شأنها التعرّف على مصير المملكة، تأسّس بذلك علم التنجيم الذي أدّت أرصاده المنتظمة إلى علم الفلك فيما بعد.

وفي كل ما يتعلّق بصحة البشر، وعلى الرغم من اعتبار أن تدهورها عائدٌ لإله غاضب أمام تصرّف بشري لا يتلاءم مع فرائض عبادته، فإن الابتهالات كان من شأنها احتواء غضبه ورجاء غفرانه. كان يرافق تلك الابتهالات استعمال معالجات طبية بواسطة عقاقير نتجت عنها علوم طبية وصيدلانية مستعملة ما تقدمه الطبيعة من نباتات تمّت معرفة خصائصها، وهي التي أدّت بدورها إلى العلوم الطبيعية بصورة عامة.

أما الموسيقا فلم يغفلها الكتاب الثالث ليستعرضَ غِناها ومختلف الآلات التي ابتدعها العالم القديم في بلاد الرافدين، بدءاً (بسومر) ووصولاً إلى (أوغاريت) ولوحاتها الموسيقية التي أمكن كتابة تنويطها وفق النظام الحديث.

ثم في عودةٍ لقدم استعمال الكتابة فإن التأليف الذي أدّت إليه، عرّفنا بسِيَرِ الآلهة والأبطال مثبّتةً على لوحاتٍ ألّفها شعراء وعلماء ومفكرون نعرف أسماءهم، وهم عاشوا بين القرنين السابع عشر ق.م والسابع ق.م، لذلك فإن الكتاب يفتخر بتقديم ملخّص عن محتوى تلك الأعمال وبعض مقتطفات عنها تعطي القارئ فكرة

عن أسلوبها وأهمية محتواها، ومن حق حضارتنا أن تفاخر بمعرفة أسماء مؤلفيها ومفكريها القدماء وهذا ما لا تعرفه الحضارات العالمية الأخرى ولو أن مصر الفرعونية عرفت بعضها في مجال الحكمة.

وأخيراً فإن **الكتاب الرابع** من هذه المجموعة يتطرّق إلى الحرفيّين في العالم القديم وهم ملوك مهارة الصنع والتحويل وخلق تحف جمالية يميزها ذوق مرهف تحمل الدفء إلى قلوب البشر دون إغفال خلق موازٍ أنتج ما يسهّل الحياة اليومية حاملاً الراحة والرفاهية في مختلف المجالات: في إعداد ألبسة مزركشة متعدّدة الألوان شملتها الهدايا التي رغب بها الملوك بالإضافة إلى ما اشتهرت به بلاد كنعان في أقمشتها الأرجوانية وفي أثاث عاجي يميّزه جمال التخريم عرفته (أوغاريت) وفلسطين ؛ يلي ذلك استعراض لأهمّ المواد الأساسية التي اعتمدها الحرفيون ومصادرها وتحويلهاإلى سلعٍ تجارية ونقلها براً وبحراً إلى عالم راغبٍ بها، يحيلنا ذلكإلى إبراز فضل ودور من سخّروا البحر وحملوا عبره إنتاج شعوبهم وعادوا إلى وطنهم تميزهم تجربة " من رأى كل شيء"، هؤلاء هم أمراء البحر الذين يحاول الكتاب الرابع إنصافهم.

توضيح:

عمدت هذه المقدمة العامة إلى إعلام القارئ بما سوف تتضمّنه هذه المجموعة المؤلفة من أربعة كتب تعرض له مآثر ملوك العالم القديم. أمّا الملوك في هذه المجموعة فهم: ملوك الحكم ورعاية الشعوب وملوك المشاريع الحيويّة التي تؤمّن لشعوبها كفايتهم، كما أن للمعرفة التي بنت ورسّخت أسس الحضارة ملوكها، وهم ملوك المعرفة. وأخيراً نختتم المجموعة بعرض بعض ما حقّقه الحرفيون في العالم القديم وهم ملوك مهارة الصنع يرافقهم أمراء سخّروا البحر وعرّفوا العوالم الخارجية بحضارة بلادهم ليعودوا بما يؤمّن استمرار دورة حياة بنوها عن طريق سلام المبادلات وسلامة العلاقات بين الشعوب.

هذا وتحت عنوان عام عن **مآثر ملوك العالم القديم في سومر وأكاد وآشور وأمورو وكنعان** فإن كتب هذه المجموعة هي كما يلي:

الكتاب: ملوك الحكم والسياسة في العالم القديم

الكتاب: الملوك: بين الري والعمران والإدارة ودور الملكات

الكتاب: ملوك المعرفة وتفعيل أسس الحضارة

الكتاب: حرفيو العالم القديم: ملوك مهارة الصنع ودور أمراء البحر

ملاحظة عامة

تسهيلاً لمهمة القارئ واختصاراً لبعض الحواشي التي سوف يتضمنها هذا الكتاب التي تتعلق بنصوص مجموعة ديوان الأساطير وهي أربعة أجزاء واختصاراً للوقت، وتسهيلاً للعودة إلى محتوى النصوص في الكتاب ذي العلاقة، نوضّح أن عناوين الكتب التي يمكن أن يعود إليها القارئ هي كما يلي:

(ك1)- الكتاب الأول: أناشيد الحب السومرية

(ك2)- الآلهة والبشر

(ك3)- الحضارة والسلطة

(ك4)- الموت والبعث والحياة الأبدية

الكتب الأربعة من ديوان الأساطير هي لقاسم الشواف تم نشرها بين أعوام 1996 و 2001 من قبل دار الساقي في بيروت.

لذا فإن حواشي الكتاب سوف نكتفي بالإشارة إلى ترتيب الكتاب فقط المشتمل على النص المعلق عليه والصفحة والصفحات التي تضمنت نشره.

مثال: (ك 2، ص 490).